وهذا كله بناء على تسليم أن الصحابة لم يكتبوا أسماء السور وكونها مكية أو مدنية في المصحف وأن ذلك من صنع المتأخرين وهو صريح كلام عبد الحكيم في حاشية البيضاوي وأما إذا ثبت أن بعض السلف كتبوا ذلك كما هو ظاهر كلام المفسرين والأصوليين والقراء كما في " لطائف الإشارات " للقسطلاني وهو مقتضى كتابة المتأخرين لذلك لأنهم ما كانوا يجرأون على الزيادة على ما فعله السلف فالاحتجاج حينئذ بالكتابة باطل من أصله ودعوى كون أسماء السور كتبت بلون مخالف لحبر القرآن يرده أن المشاهد في مصاحف السلف أن حبرها بلون واحد ولم يكن التلوين فاشيا .

وقد احتج بعضهم بما رواه البخاري عن أنس أنه سئل كيف كانت قراءة النبي فقال : كانت مدا ثم قرأ : بسم ا الرحمن الرحيم يمد بسم ا ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم اه . ولا حجة في هذا لأن ضمير قرأ وضمير يمد عائدان إلى أنس وإنما جاء بالبسملة على وجه التمثيل لكيفية القراءة لشهرة البسملة .

وحجة عبد ا بن المبارك وثاني قولي الشافعي ما رواه مسلم عن أنس قال " بينا رسول ا بين أظهرنا ذات يوم إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما فقلنا ما أضحكك يا رسول ا قال أنزلت على سورة آنفا فقرأ (بسم ا الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر) السورة قالوا وللإجماع على أن ما بين الدفتين كلام ا ولإثبات الصحابة إياها في المصاحف مع حرصهم على أن لا يدخلوا في القرآن ما ليس منه ولذلك لم يكتبوا " آمين " في الفاتحة . والجواب عن الحديث أنا نمنع أن يكون قرأ البسملة على أنها من السورة بل افتتح بها عند إرادة القراءة لأنها تغني عن الاستعاذة إذا نوى المبسمل تقدير أستعيذ باسم ا وحذف متعلق الفعل ويتعين حمله على نحو هذا لأن راويه أنسا بن مالك جزم في حديثه الآخر أنه لم يسمع رسول ا بسمل في الصلاة .

فإن أبوا تأويله بما تأولناه لزم اضطراب أنس في روايته اضطرابا يوجب سقوطها .

والحق البين في أمر البسملة في أوائل السور أنها كتبت للفصل بين السور ليكون الفصل مناسبا لابتداء المصحف ولئلا يكون بلفظ من غير القرآن وقد روى أبو داود في سننه والترمذي وصححه عن ابن عباس أنه قال . قلت لعثمان بن عفان : " ما حملكم أن عمدتم إلى براءة وهي من المئين وإلى الأنفال وهي من المثاني فجعلتموهما في السبع الطوال ولم تكتبوا بينهما سطرا " بسم ا الرحمن الرحيم " قال عثمان كان النبي لما تنزل عليه الآيات فيدعو بعض من كان يكتب له ويقول له ضع هذه الآية بالسورة التي يذكر فيها كذا وكذا أو تنزل عليه الآية

والآيتان فيقول مثل ذلك وكانت الأنفال من أول ما أنزل عليه بالمدينة وكانت براءة من آخر ما أنزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها فقبض رسول ا ولم يبين لنا أنها منها فظننت أنها منها فمن هناك وضعتها في السبع الطوال ولم أكتب بينهما سطرا " بسم ا الرحمن الرحيم " .

وأرى في هذا دلالة بينة على أن البسملة لم تكتب بين السور غير الأنفال وبراءة إلا حين جمع القرآن في مصحف واحد زمن عثمان وأنها لم تكن مكتوبة في أوائل السور في الصحف التي جمعها زيد بن ثابت في خلافة أبي بكر إذ كانت لكل سورة صحيفة مفردة كما تقدم في المقدمة الثامنة من مقدمات هذا التفسير .

A E